الباب السادس

الحياة الروحية فى مدرسة الموصل

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الأول

سمات الحياة الروحية فى الموصل

كانت منطقة الموصل فى شمال العراق – موطناً قديماً قد تعرض لثقافات متعددة قبل الإسلام. كان شمال العراق مسرحاً لدول متعددة. أولها الدولة الأشورية. وقد أسست الدولة الأشورية، نينوى وهى تقع مجاورة للموصل. ثم أعقبتها المملكة الكلدانية الجديدة... وقد كان للأشوريين أو الكلدان الجدد بقايا فى العصر الإسلامى، ثم تناولت المنطقة الأحداث وأتى إليها الفرس، كما كان يعيش بجوارها الأكراد. وفى الموصل... قبر يونس بن متى، وكان المسيحيون يحجون إليه... وانتشر المسيحيون فيها، وكثرت الأديرة، وظهر فى نينوى إسحاق النينوى – كما كان لتعاليم القديس إفرايم أثر فيها.

كما كان بالقرب من الموصل جبل القاف، وعليه هيكل لشهيدين مسيحيين أسطوريين هما بهنام وسارة. كما أن بحوار البصرة أيضاً قبر ناحوم النبى اليهودى. وكان أيضاً فى هذه المنطقة وبالقرب من تكريت جنوب الموصل قبائل عربية أتت وسكنت الحضر، والحضر هى حضر الأشورية. كانت المنطقة إذن عامرة بالديانات المختلفة والأجناس المتعددة، وقد عاد الأشوريون أيضاً إلى نينوى قبل الإسلام، كما يذكر أيضاً أن المسيحيين من الآراميين أقبلوا إليها، لخصب المنطقة ولوجود قبر النبى يونان، كما قلت.

أما عن الموصل نفسها فقد سميت باسم – الحصن العبورى – حسنا عبرايا، وقد أنشأها – أول الأمر الفرس تحت اسم، نوارد شير.

وأتى خالد بن الوليد عام (٢٠ هـ) ففتح الحصن العبورى ونوارد شير، ولم يجد فيها سوى محلتين: واحدة للفرس والأخرى للجرامقة النصارى. وأسكن فيها خالد قبيلة الخزرج الأنصارية، ثم أتى إليها بنو أزد ثم بنو تميم. ومازال الموصليون حتى الآن يتكلمون لغة بنى تميم. وحين استقر العرب فى تلك الديار، أصبح أغلب أهل الموصل من تلك القبائل العربية النازحة، ثم بقايا الأمم السابقة، وبخاصة الآراميين، وكانوا يكونون متحفاً حضارياً عجيباً. ثم الأكراد، وفى عصر متأخر أتى اليزيدية... والتركمان ثم الشبك والباجوران... وهم فرس، ولكن لغتهم مزيج من الفارسية والكردية والتركية.

وحين فتح العرب الموصل كانت بيد الروم لا بيد الفرس . ثم سكنها العرب - كما قلت- وعاشت الموصل حياتها فى عصر الخلفاء الراشدين ، ثم قامت الفتنة بين على ومعاوية ، وظهر الخوارج- وكانت الموصل قبلة للخوارج - يأتون إليها كثيراً . ولسنا هنا نتتبع تاريخ الموصل السياسى .

وإنما نلاحظ ظاهرة غريبة ، فلم يأت للموصل صحابى كبير من ذوى العزم ، ليقيم فيها مدرسة دينية كبرى ، كما حدث فى الكوفة والبصرة ودمشق والفسطاط . فلم يظهر عبد الله بن مسعود آخر، كما ظهر فى الكوفة ، أو أبو موسى الأشعرى ، كما فى البصرة ، أو أبو الدرداء فى الشام . . . ويبدو أن الموصل اتصلت اتصالاً روحيا بالمدينتين البصرة ، والكوفة أول الأمر ، فكان لعطاء السليمى البصرى أثر كبير فى عبادها ، وبخاصة أن كثيرين من السليميين سكنوا الموصل ، وكانوا على صلة ببنى عمومتهم فى البصرة ، كما اتصلوا بسفيان الثورى ، محدث الكوفة وزاهدها وتتلمذوا عليه ، كما اتصلوا بمدرسة الشام وشيخها الدارانى وابن أبى الحوارى ، وكان لعبادها الصلات الكبيرة بهما ، ثم انتهى بهم الأمر - بعد إنشاء بغداد - إلى الاتصال بعبادها وزهادها - كبشر بن الحافى وغيره . وتميزت الموصل أيضاً بعباد جبل « قاف » وقد قلنا إنه كان على هذا الجبل دير مسيحى ، هو دير مار بهنام ، كما أنه يوجد أيضاً دير مار متى . . . نسبة إلى الشيخ متى الناسك القديم ، والذى اعتنق بهنام وساره المسيحية على يديه ، فقتلها أبوهما سنحاريب ، فى قصة أسطورية اعتبرت من قصص الشهداء .

كما كان فى الموصل مدارس متعددة . ومن أهمها مدرسة ماركوريبل . وهى مدرسة ديرية وكانت على دجلة ، بالقرب من باشطابية - وقد اشتهرت هذه المدرسة بتدريس الفلسفة واللغات . وقد ذكر هذه المدرسة يوحنا بن خلدون الموصلى فى كتابه المسمى يوسف البابونسى[1] .

وأول من نجد اسمه من عباد البصرة هو معروف بن أبى معروف (قتل عام ١٣٣ هـ) وقد ذكرته المصادر بأنه كان عابداً وناسكا [2]. وقد قتل فى ملحمة الموصل المشهورة ، على يد يحيى بن محمد العباسى . وقد ذكر أنه كان من تلامذة الحسن البصرى ، وقد دعت ملحمة الموصل إلى القول بأن الموصل بلد « الأبدال » ويذكر الأزدى : إن أبا بكر بن عباس الزاهد المشهور يقول « ابتداء الأبدال من أهل الموصل[3] كانت النكبات تحل إذن بالموصل ، ولكنها وصلت أوجها فى عهد أول خلفائهم السفاح . وكان لابد للزهاد أن يشعروا بأسى لمقتلة المسلمين ، وأن يعلنوا أن الموصل بلد « الأبدال » وكانت كلمة الأبدال عرفت ونحن نعلم أنها ستأخذ المصطلح الفنى بعد ذلك فى دوائر الصوفية مع مصطلح الغوث والقطب .

---

(١) سليمان الصائغ : تاريخ الموصل ج ١ ص ٩٣ .

(٢) أبو القاسم الأزدى : تاريخ الموصل ص ١٤٧ - ١٥٣ .

(٣) نفس المصدر ص ١٥٤ .

الفصل الثانى

المعافى بن عمران ومدرسته

وما لبثت حياة الزهد أن ظهرت فى الموصل على يد أول زاهد رسمى ، أو بمعنى أدق أول زاهد أرخت له كتب الطبقات ، وهو المعافى بن عمران وكان يكنى أبا مسعود . وقد توفى سنة خمس وثمانين ومائة .

وكان المعافى بن عمران فقيهاً ومحدثاً وقد روى عنه عبدالله بن المبارك محدث خراسان المشهور وكان يقول عنه « حدثنى ذلك الرجل الصالح »[1] . وروى عنه الصوفى المشهور بشر الحافى أيضاً وكان يتعشقه[2] . وقد سأل رجل بشراً الحافى « مالى أراك عاشقاً للمعافى بن عمران . فقال : مالى لا أعشقه ، وكان الثورى يسميه : ياقوتة العلماء . . . وقد اشتهر المعافى بن عمران بالفقه والحديث ، كما يذكر الأزدى ، كما يذكر أيضاً أن سفيان الثورى كان يقول : امتحنوا أهل الموصل بالمعافى بن عمران ، فمن ذكره بخير قلت : هؤلاء أصحاب سنة وجماعة ، ومن عابه قلت : هؤلاء أصحاب بدع » .

اما عن حياة هذا الفقيه الناسك الورع ، فقد كانت حياة زهد تامة ، ويذكر بشر بن الحارث الحافى أنه قتل للمعافى ولدان فى وقعة الموصل (عام ١٦٨ هـ) فلم يظهر الجزع ، ولا سمع من داره صوت ولا بكاء ، بحيث كان يوصف بأنه « صاحب كمد » وحين أخذ الذين قتلوا ابنه ، ووضعوا فى قصر . كان المعافى فيه ، قال لهم « تدلوا من هذا القصر ولا يشعرن بكم أحداً وامضوا لشأنكم »[3] وهى صورة من العفو قلما تحدث للبشر .

وقد كان المعافى بن عمران يمثل الثورى تمام التمثيل ، فهو محدث ، وفقيه وزاهد . وقد تتلمذ على الثورى وأكثر ملازمته والتأدب بآدابه . ويذكر الخطيب البغدادى وابن الجوزى أنه صنف كتاباً فى السنن والزهد والآداب ، ولم يصل إلينا هذا الكتاب ، كما أن الأخبار التى وصلت إلينا عنه قليلة ، وكذلك أقواله – فيما عز المؤمن ، استغناؤه عن الناس وشرفه قيام الليل ، ويذكر الأزدى أن ثمت زاهداً آخر كان

---

(١) الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد . . ج ١٣ ص ٢٢٧ – ٢٢٨ .

(٢) الأزدى : أخبار الموصل ص ٨١ ، ٨٢ ، ٣٠١ .

(٣) ابن الجوزى : صفة ج ٤ ص ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ، أبو نعيم : الحلية ج ٨ ص ٢٨٧ ، ٢٨٩ ، والخطيب البغدادى : تاريخ بغداد ج ١٣ ص ٢٢٦ .

معاصراً للمعافى بن عمران وهو القاسم بن يزيد الجرمى الموصلى . ويقارن بينه وبين المعافى بن عمران فيقول كان المعافى أسمع الرجلين صوتاً ، وكان القاسم الجرمى صالحاً ، وكان على بن حرب (الزاهد المتوفى عام ١٦٥ هـ) يدخل عليه ، فيجده على قطعة بارية وتحت رأسه لبنة . . . وكان جيرانه يقولون «جارنا من عشرين سنة ما اقتضانا حاجة قط[١] » .

هكذا كان أوائل الزهد فى الموصل – فيما أرجح – يمثل مدرسة الزهد ، ففيه من مدرسة الثورى ، يدخل فى أعماق حياة العبادة والزهد ، ولا نجد أثراً لمسيحية أو يهودية أو غنوصية .

وجاءت مرحلة السياحة لدى زهاد الموصل ، فنرى الزاهد الموصلى أحمد الموصلى يرحل إلى الرقة فقابل أحمد الميمونى – من ولد عابد الرقة المشهور ميمون بن مهران فيقول له : يا أحمد : أن تعمل ، قد عمل العاملون قبلك ، وأن تعبد فقد تعبد المتعبدون قبلك ، أولئك الذين قربوا الآخرة وباعدوا الدنيا ، أولئك الذين ولى الله إقامتهم على الطريق ، فلم يأخذوا يميناً ولا شمالاً ، ولو سمعت نغمة من نغماتهم المختمرة فى صدورهم المتغرغرة فى حلوقهم ، يغيب عليك عيشك ، ولطردت عنك البطالة – أيام حياتك » . . . ويذكره أحمد الميمونى يقول أبو العالية الرياحى « يا معشر الربانيين من أمة محمد ﷺ ، انتدبوا للدار . . .» ويغشى على أحمد الموصلى[٢] . وكذلك يفعل الزاهد سباع الموصلى فإنه يرحل إلى الشام ، ويقابله زاهدها المشهور مضاء بن عيسى . . . ويسأله مضاء . . . إلى أى شىء أفضى بهم الزهد : فيجيب سباع : إلى الأنس به[٣] . وقد تتلمذ مضاء بن عيسى وأحمد بن أبى الحوارى على سباع وينقل ابن أبى الحوارى عنه أيضاً بعض الإسرائيليات[٤] .

وفى الموصل أيضاً – كما قلنا – ازدهرت فكرة الأبدال ، وظهور الخضر ، الشخصية القرآنية المشهورة لهؤلاء الأبدال . وتتضح صورة البدل هذه فى الزاهد فتح بن محمد بن وشاح الأزدى البلدى الموصلى ويكنى أبا محمد (توفى عام ١٦٥ هـ فيما يقول الأزدى[٥] و١٧٠ فيما يقول ابن الجوزى ، وابن تغرى بردى[٦]) . وقد كان فتح هذا من معاصرى المعافى بن عمران ومن أصدقائه .

ويذكر الأزدى صاحب تاريخ الموصل : أن والى الموصل الأمير العباسى أحمد بن إسماعيل ذهب

---

(١) الأزدى : تاريخ الموصل ص ٣١٦ .

(٢) ابن الجوزى : صفة ج ٤ ص ١٦١ ، ١٦٢ ، وأبو نعيم : الحلية ج ٨ ص ٢٨٨ ، و ج ١٠ ص ١٣٤ .

(٣) أبو نعيم : حلية ج ٨ ص ٢٩٢ ، وابن الجوزى صفة ج ٤ ص ١٦١ .

(٤) الأزدى : تاريخ الموصل ص ٢٥١ .

(٥) نفس المصدر .

(٦) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٦٥ .

إلى منزل فتح بن وشاح الموصلى ، وسلم عليه ، فلم يخرج له فتح . فخرج ابنه ليعتذر للأمير وقال له إنه نائم : فقال فتح من داخل البيت : ما أنا بنائم مالى ومالك . فقال له الأمير : هذه عشرة آلاف درهم خذها فضعها حيث شئت . فقال له : ضعها أنت فى موضعها . مالى ومالك يا هذا» وأبى أن يخرج إليه ولم يقبل منه مالا[١] .

وحين مات فتح ، غلقت الأسواق ، وخرج الناس مزدحمين – يبكون ويصرخون . وجاء الأمير أحمد بن إسماعيل وصلى عليه ، وكان أهل القرى يأخذون من تراب قبره فيذهبون به إلى منازلهم يتبركون به .

ويبدو أنه اشتهر « بالبكاء » يقول الأزدى : « وكان الغالب عليه البكاء[٢] » . أما صاحب النجوم الزاهرة فيقول «كان صاحب كرامات وأحوال [٣]. كما اتخذ أيضاً طريق الجوع كعباد الشام ويفضل العرى : وكان يقول فى جوف الليل « رب أجعتنى وأعريتنى ، وفى ظلم الليل أجلستنى فبأى وسيلة أكرهتنى هذه الكرامة » ثم يندفع فى البكاء ساعة ، وفى الفزع ساعة . . . صورة غامضة يختلط فيها الزهد الشامى بزهد البصرة . . . بعرى الحكيم الهندى العارى . ويدخل عليه المعافى بن عمران ، فقيه الموصل وناسكها، فيرى ابنته وعليها خرقة وابنه وهو مريض ، فيطلب من فتح بكسوة الصبية ، فيأبى ويقول دعها حتى يرى الله عز وجل ضرها وصبرى عليها ، فيرحمنى ، فلما تجاوز إلى الصبى المريض ، وقعد عند رأسه وسأله : حبيبى ألا تشتهى شيئاً حتى أحمله : فسأله الصبى من أنت . فقال : المعافى ابن عمران . . . فرفع الصبى رأسه وقال : منى الصبر وإليك البلاء . . .

ثم هو البدل الأكبر – وزميل الخضر – وقد اعتبرت الموصل – كما قلت – بلد الأبدال . ويذكر ابن الجوزى قضية أبى غسان المؤذن الموصلى وخروجه للحج . . . وفى مكة قابل رجلاً فارسياً من أهل الصلاح ، يغسل للناس ثيابهم ويتجر على الضعفاء ، فيغسل ثيابهم بغير أجر . فلما علم أنهم من الموصل ، سألهم عن فتح الموصلى ، فلما عرف بوفاته ، بكى وأظهر الحزن . فلم استوضحوه أمره ، أخبرهم أنه كان يعيش فى فارس ، فراوده حلم عدة ليال : أن ائت فتحاً الموصلى ، فإنه من أهل الجنة ، فخرج من فارس حتى أتاه فى الموصل . فأخذه إلى المسجد حيث أكلا . . . ثم قاما إلى الصلاة ، وتفرق الناس ، وساد المسجد الظلام ، فأتاهما رجل إلى المسجد ، وصلى ركعتين ثم تحدث إلى فتح وسأله عن العابد أبى المسرى جمزة الخولانى وكان يعيش فى قرية بالقرب من الموصل ، فأخبره

---

(١) الأزدى : تاريخ الموصل ص ٢٤٦ ، ٢٤٧ .

(٢) نفس المصدر : ص ٢٤٧ .

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٦٥ .

الرجل الغريب أنه مريض ، وطلب منه أن يصاحبه فى زيارته . وقام الاثنان ومضيا إلى دجلة ، فإذا بالرجلين يمشيان على الماء . . . والفارسى ينظر . . . وفى الصباح أخبره الفارسى وحاول فتح أن ينكر ، ولكن الفارسى أكد له ما رأى . فأخذ عليه العهود ألا يقص هذا لإنسان طالما كان هو حيا . ثم أخبره أن الرجل الغريب هو الخضر[١] .

ولا نبحث فى افتعال القصة ، إن التجربة الصوفية هى ملك لصاحبها ، وإنما أوردتها لكى أقرر أن فكرة الأبدال كانت متمكنة فى نفوس زهاد المسلمين ، وأنهم أضافوها إلى بلدان متعددة ، وفى مقدمتها الموصل .

بل تظهر فكرة « الأقطاب السبعة » لدى صوفيين موصليين ، وصلت إلينا أخبارهما غامضة وهما «سعدون الموصلى» و «عبد الله اليونانى» . وقد كان «سعدون الموصلى» فيما يقول محمد بن أبى الحوارى (شقيق أحمد بن أبى الحوارى الزاهد الدمشقى المشهور، وقد كان زاهداً مثل أخيه) ، رجلا موطأً ، وكان يحسن إليه ، وكان سائحاً . . . وقد ذكر سعدون لمحمد بن أبى الحوارى قصة هذا القطب الكبير . وقد قابله فى سياحته ، وقد سأله عن الطريق إلى الله — فأجابه : اجعل الدنيا لك سجناً ، والآخرة سكناً وحصناً ، وعود عينيك البكاء والسهر ، والزم الخدمة فى السحر ، وكن منه على حذر . . . وإذا عرفك الطريق إليه ، سخر لك الوجود ، وأذل لك الأسود . . . ثم يسير معاً ، ثم يعبر النهر على ردائه . . . وذهب إلى رجل يجود بنفسه ، فسأله . . . من يكون هذا الرجل فأجابه بأن اسمه عبدالوهاب . . . وهو من السبعة الأقطاب . . . ومات عبدالوهاب . ثم علم أن هذا القطب الكبير هو صاحب العلم الربانى ، عبدالله اليونانى . . . وقبل أن يودع سعدون عبدالله اليونانى سأله . . . أن يزوده بشىء ينتفع به فى الدنيا والآخرة . . . فقال له : اسلك سبيل الهدى ، وجانب أهل المعنى والردى ، واقنع برزق اليوم ولا تهتم برزق غد ، وعامل مولاك بالرضا ، والصبر على البلاء والقضاء[٢] .

والقصة . . . بلاشك فى معظمها أسطورية ، ولكن يظهر فيها اسم « اليونانى » وأنه صاحب المعرفة وصاحب المحبة . ونحن نتساءل : هل ثمت أثر خارجى فى تلك القصص ، وفى ظهور مصطلح الأقطاب السبعة ، بالإضافة إلى انتشار فكرة الأبدال فى الموصل .

ولقد رأينا أن فتح بن وشاح الموصلى كان يمثل العبادة وأوائل الزهد ، إن صاحب تاريخ الموصل يسميه بفتح العابد[٣] . ويسميه صاحب النجوم الزاهرة « الزاهد العابد[٤] » ، وما يلبث أن يظهر الزهد

---

(١) ابن الجوزى : صفة ج ٤ ص ١٥٣ — ١٥٥ .

(٢) الحريفيش : الروض الفائق ص ١٩٢ — ١٩٣ .

(٣) الأزدى : تاريخ الموصل ص ٢٤٦ .

(٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٦٥ .

كاملاً ، بل الزهد الضارب للتصوف على يد فتح آخر ، وهو أبو نصير فتح بن سعيد الموصلى (المتوفى سنة ٢٢٠ هـ). ويقرر ابن الجوزى أنه « قد يشتبه هذا بالذى قبله إذا قيل فتح الموصلى وهما اثنان معروفان عند أهل العلم ، وإذا فرق بينهما بالكنية أو باسم الأب ، تباينا »[١] ويذكر الشعرانى بأنه « كان من أقران بشر بن الحارث والسرى السقطى ، وكان كبير الشأن فى باب الورع والمعاملات[٢] » . وسنرى أنه كان على صلات وثيقة ببشر بن الحارث ، وقد وصلت إلينا أقواله وكثير من أخباره عند بشر ابن الحارث .

أما عن أسرته ونشأته ، فليس لدينا الكثير عنها : سوى أنه كان شريفاً عربياً ، ولما تزهد ترك دنياه ، وكان « يوقد بالأجر » لكسب معاشه . كما كان له بضاعة عند أخ له ، يعمل بها فى البر والبحر – وهذا يدل على يسر أسرته وثرائها – – ثم بعث فتح فاستردها وأنفقها – ويعلق هو على هذا – على طريقة الزهاد « رأيت قلبى يميل إليها ، فكرهت أن تكون ثقتى سواه »[٣] أما عن أساتذته فيذكر ابن الجوزى أيضاً أنه أدرك عيسى بن يونس ، وأسند عنه ، وكان زميله فى سماع الحديث بشر بن الحارث

أما عن أساتذته فى الزهد ، فيذكر بعض الزهاد أنهم رأوه فى حانوت سالم الدورقى فى الموصل ، ولم يذكر أحد من مؤرخى طبقات الصوفية تفصيلاً لحياة سالم أو تلمذة فتح عليه . ولكن الأزدى صاحب تاريخ الموصل يذكر فى وفيات أربع وثمانين ومائة وفاة « سالم الدورقى الموصلى » ويقرر أن «فتح الموصلى» كان يجلس إليه فيما يذكر . حدثنى ابن مغيرة عن بعض رجاله : كان سالم يخرج إلى الجودى ، فيعتبر بما يرى ويبكى بكاء كثيراً . فرأته هناك عجوز نبطية ثم دخلت الموصل ، فرأته قائماً فى السوق ، فقالت له : ياشيخ . تلك القرحة التى بك – برئت بعد[٤] فكان هناك إذن زاهد بكاء ، وكان يتعبد خارج الموصل ، وكان على صلات بالنبط ، ثم يأتى سالم الدورقى إلى الموصل ، إلى حانوته ، فيقبل عليه العباد ، ومنهم فتح ، فسالم إذن أستاذ فتح أو صديقه : وسنرى أن فتحاً سيغشى عليه فى حانوت سالم الدورقى فى مشهد مثير انتشر بين العباد . ويذكر فتح أنه صاحب ثلاثين شيخاً – كانوا يعدون من الأبدال – كلهم أوصوه عند فراقه إياهم ، أن يتقى معاشرة الأحداث ومخالطتهم[٥] . ولكن من هم هؤلاء الأبدال . . . لم تترك لنا المصادر أسماء أحد منهم .

وكانت طريقة فتح بن سعيد فى التعبد ، طريقة سلفه فتح بن محمد بن وشاح ، بل طريقة عباد

---

(١) ابن الجوزى : صفة ج ٤ ص ١٥٥ .
(٢) الشعرانى : طبقات ج ١ ص ٦٨ .
(٣) ابن الجوزى : صفة ج ٤ ص ١٥٨ .
(٤) الأزدى : تاريخ الموصل ص ٣٠٠ .
(٥) القشيرى : الرسالة ج ٢ ص ٧٤٥ .

المسلمين جميعاً وزهادهم : الجوع والعرى . ويذكر بشر بن الحارث عنه قصصاً وأحاديث تشبه قصص فتح الوشاحى ، وتختلط به يقول بشر « بلغنى أن بنتاً لفتح الموصلى عريت : فقيل له : ألا تطلب من يكسوها فقال : لا ، ادعها ، حتى يرى الله عز وجل عريها وصبرى عليها » وهذا نهاية مقام الصبر عند العباد . ويذكر بشر أيضاً « فكان إذا كان ليالى الشتاء ، جمع عياله ، وقام بكسائه عليهم ، ثم قال : اللهم أفقرتنى وأفقرت عيالى وجوعتنى وجوعت عيالى ، وأعريتنى وأعريت عيالى ، بأى وسيلة توسلتها إليك ، وإنما تفعل هذا بأوليائك وأحبائك ، فهل أنا منهم حتى أفرح » وإذا أصيب بالفرح . قال « يا رب . ابتليتنى ببلاء الأنبياء ، فشكر هذا أن أصلى الليلة أربعمائة ركعة » وحين يعود إلى منزله ، وهو صائم ، فإذا بأهله جلوس فى الظلام ، لاسراج لديهم ، ولا طعام . . . فيبكى من الفرح ويقول : « إلهى مثلى يترك بلا عشاء ولا سراج ، بأى يد كانت منى » ومازال يبكى حتى الصباح ، فإذا حصل على أقل القليل من المال ، اشترى نخالة ، يتعيش بها هو وأهله[1] » .

كان هذا هو طريق افتعال الجوع والعرى ، للوصول إلى درجات أو مقامات الصبر والحب . . . واصطفاء للمريد وحبه له . وكثيراً ما كان الزهاد يقومون بهذا الدور تصفية لنفوسهم ، ولكننا نرى فتحاً هنا يمارسه حتى على ابنته وأهل بيته .

وهو فى هذا كله يتردد على سالم الدورقى ، ولم يكتمل نضجه الصوفى بعد . ويذكر عثمان بن عمارة الزاهد البصرى ، أنه غاب غيبة ، فلما قدم لقى فتحا الموصلى فى حانوت سالم الدورقى : فقال له : يا بصرى : أى شىء رأيت فى غيبتك . فأجابه : بأنه رأى عجائب كثيرة » وأخبار مختلفة . فصاح فتح صيحة ، فقال عثمان : أنت تصيح من الخبر ، فكيف لو شاهدت القيامة ، وصاحب القيامة ، فشهق شهقة ، ووثب من الحانوت ، فخر مغشياً عليه . . . فحمله حمزة وسالم وأصحابهما ، وأدخلوه الحانوت فمازال مغشياً عليه إلى العصر . ثم لما فتح عينيه قال لعثمان : كيف قلت ، فصاح به : أن اسكت . فلما سئل عثمان : لم أمرته بالسكوت . فأجاب : مخافة إن رددت عليه القول أن أقتله[2] » كان فتح إذن فى هذا الوقت ، لم ينضج بعد النضوج الكامل ، لتقبل الواردات والأحوال والهواجس . . . ليكون قطب الموصل وإمام زهادها . . . كان فى حالة من اليأس دائمة ، حالة عرفت بعد باسم القبض . . . وصيغة دعائه تثبت هذا « كبرت على خطاياى وكثرت ، حتى لقد آيستنى من عظيم عفو الله . . . وإنى آيس منك ، وأنت الذى جدت على السحرة بعد أن غدوا كفرة فجرة ، وأنى آيس منك ، وأنت ولى كل نعمة ، وأنى آيس منك ، وأنت المؤمل لكل فضل ومعروف ، وأنى آيس

---

(١) القشيرى : الرسالة ج ٢ ص ٧٤٥ .

(٢) أبو نعيم : الحلية ج ٨ ص ٢٩٣ ، وابن الجوزى : صفة ج ٤ ص ١٥٩ .

منك ، وأنت المغيث عند الكرب . . . ولم يزل يقول « آيس منك » حتى سقط مغشياً عليه[١] .

وكان فتح يكثر من البكاء ، حتى تدمع عيناه بالدماء . وقد سئل عن بكائه الدموع والدم فأجاب « بأنى بكيت الدموع على تخلفى عن واجب حق الله عز وجل . وبكيت الدم على الدموع ، خوفاً أن تكون ما صحت لى الدموع[٢] » .

ولكن مايلبث أن يسيطر على تقلبات نفسه وتلويناتها ، ويمر بهدوء فى طرقات الموصل بصبيين مع أحدهما كسرة عليها عسل ، ومع الآخر كسرة عليها كامخ . فقال الصبى الثانى للأول متذللاً « أطعمنى من خبزك » فقال الأول : إن كنت لى كلباً أطعمتك . قال نعم . فأطعمه من خبزه وعسله ، وجعل فى فمه خيطا يقوده . فقال : فتح لو رضيت بخبزك . ما كنت كلباً لهذا » وهى قصة رمزية يعلق عليها الزاهد الطرطوسى عمران بن موسى : « فهكذا الدنيا[٣] » إنما نحن كلاب لها . لقد كان فتح هنا فى مقام الرضا ، فوق الدنيا وزينتها . ويعبر أدق تعبير عن هذا ، حين يرى الناس فى يوم عيد وعليهم الطيالس والعمائم « إنما ترى ثوباً يبلى ؛ وجسداً يأكله الدود هؤلاء أنفقوا خزائنهم على بطونهم وظهورهم ، ويقدمون على ربهم مفاليس » ولم يعد فى هذه المرحلة غشية ولا صرخات ، إنما هى عين الحكيم الزاهد ترى وتنظر .

وفى هذه المرحلة كان هو معلم الموصل الكبير . . . واتصل بصوفية بغداد وبخاصة بشر بن الحارث الحافى ، وقد كان تتلمذ معه على عيسى بن يونس فى رواية الحديث . وقد أتى إليه مراراً وكان عليه جبة من صوف وعلى رأسه مئزر من صوف وبيده ركوة . جاء مرة يسأله عن حديث استمعا إليه سوياً عن عيسى بن يونس ، وشك فتح الموصلى فى سماعه هو للحديث . وهذا يدل على عناية الرجل بالحديث . وأتاه مرة أخرى « وكان ثائر الشعر ملتفاً بالعباء » ولما علم بشر بمقدمه ، خرج مسرعاً فصافحه وعانقه . . . وطلب أطيب الطعام . . . فأتوا إليه به . . . فأكل ، ثم حمل بقية الطعام ، وودع بشرا وأصحابه ثم خرج . وقد علق بشر على هذا . . . وقال : إن طيب الطعام يستخرج خالص الشكر لله « ويعلل سبب حمله للباقى من الطعام » عندهم : إذا صح التوكل لا يضير الحمل . . . »[٤] ويقول : « وهذا فتح الموصلى . . . جاءنا زائراً[٥] » ، وهى دروس فى دقيق التصوف ، أراد الشيخان إظهارها لهؤلاء المريدين .

---

(١) ابن الجوزى : صفة ج ٤ ص ١٥٨ .

(٢) المصدر السابق : ج ٤ ص ١٦١ ، والخويفيش : الروض الفائق ص ٦٠ ، ٦١

(٣) المصدر السابق : ج ٤ ص ١٥٨ .

(٤) أبو نعيم : حلية ج ٨ ص ٣٩٤ .

(٥) ابن الجوزى : صفة ج ٤ ص ١٥٧ ، والطوسى : اللمع ص ٢٤٤ .

وأخذ فتح الموصلى يلقى بلمحات فى التصوف رائعة فاتنة ، وينقل عنه بشر بن الحارث حديثه فى الحب ، وأن طريقه إدامة النظر بقلبه « من أدام النظر بقلبه ، ورثه ذلك الفرح بالمحبوب » ولن تصل إلى الحب إلا بالإيثار « ومن آثره على هواه ، ورثه ذلك حبه إياه . ثم الشوق إليه يتملكه ، والزهد فيما سواه » ومن اشتاق إليه ، وزهد فيما سواه ، ورعى حقه وخافه بالغيب ، ورثه ذلك النظر إلى وجهه الكريم[1] » فغاية الزاهد إذن الرؤية السعيدة ، النظر إلى وجه الله متجلياً فى بهائه .

وإذن لقد استهل فتح فى الحب الإلهى : وقد أورد صاحب اللمع أيضاً القصة الشائعة عن كثير من الصوفية ، أنه أخذ صبياً له فقبله . فسمع هاتفاً يقول : يا فتح : ألا تستحى أن تحب معنا غيرنا[2] » فلم يقبل له ولداً بعد ذلك . ونحن نعلم أن رابعة العدوية قد هتفت من قبل لرياح القيسى بنفس الهتاف . . .

وأدلى فتح الموصلى بدلوه فى بعض المعانى الصوفية ، فقد نقل إلينا أنه سئل عن الصدق : فأدخل يده فى كير الحداد . . . وأخرج الحديدة المحماة ، ووضعها على كفه . وقال : هذا هو الصدق[3] .

وأخيراً . . . وصل الرجل إلى أوج الاستهلاك فى مقام الحب . ويقص تلميذه أبو إسماعيل – وكان من نصارى الموصل وأسلم على يديه . . . أنه : « كان والله – كهيئة الروحانيين ، معلق القلب بما هناك ، ليست له فى الدنيا راحة » .

وأخيراً نراه يسبق الحلاج فى مواقفه الصوفية النادرة . يقص أبو إسماعيل أنه شهد العيد الأضحى ذات يوم بالموصل ، فنظر إلى الدخان يغور من نواحى المدينة . . . فبكى ثم قال : . . . قد قرب الناس قربانهم ، فليت شعرى ما فعلت فى قربانى عندك أيها المحبوب . . . ثم سقط مغشياً عليه . . . فلما أفاق ، مضى إلى بعض أزقة المدينة . . . وصاح مرة ثانية « تقرب المتقربون بقربانهم وأنا أتقرب إليك بطول حزنى – يا محبوب ، تتركنى فى أزقة الدنيا محبوساً . . .[4] » ، ثم غشى عليه . . . وحمل إلى بيته . . . ومات بعد ثلاث سنوات .

وتلك صورة حلاجية – حدثت قبل الحلاج ونادى بها بعض الصوفية ، ومنهم فتح الموصلى . وهى صورة التصوف الإسلامى الحقيقى ، أن يكون قربان الذبيح ، قربان إبراهيم لإسماعيل . . . قربان روحى ، يقوم به الصوفى المسلم فداء له . . . هنا تتم تضحية إبراهيم . وكم أراد الصوفية أن يحققوا هذا

---

(١) أبو نعيم : حلية ج ٨ ص ٢٩٣ ، والشعرانى ج ١ ص ٦٨ .
(٢) الطوسى : اللمع : ص ٢٦٥ .
(٣) القشيرى : الرسالة : ج ٢ ص ٤٥٢ .
(٤) ابن الجوزى : صفة ج ٤ ص ١٦٠ .

بالموت المادى على أيدى الفقه . ولكن الفقه لم يتناول سوى الحلاج ، حين شطح وحين باح ، وحين أوغل فى تحدى الفقه تحدياً صارخاً لكى تقتل نفسه اللعينة ، فيحقق مقام القربان الإسلامى الأول . ويموت فى مقام إبراهيم لم يتحقق ، وفى عنقه صوفة القربان الأول . خرقة الصوفية العديدة . لقد أوصل هؤلاء الصوفية جميعاً صوفيتهم بمصدر إسلامى بحت ، هو ضحية الإسلام فى عيد فطر لا بكبش من الأكباش ، وإنما بالجسد نفسه ، حاملاً رمز الكبش .

لقد كان فتح ، كما كان غيره من زهاد أواخر القرن الثانى مقدمة لظهور التصوف – كعلم له أصوله وقواعده .

obeikandl.com